عثمان بن بشر مخالفات ومداخلات

العلامة الشيخ عثمان بن بشر، صاحب كتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) الذي قدم من خلاله رصدًا أمينًا لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية التي ساندها الأئمة من آل سعود، وكغيره من الكبار الرواد الأمناء لم يسلم هذا العلم المؤرخ من انتقاد بعض الكتاب والباحثين للنيل من موثوقيته ومصدريته، وما قولهم إن ابن بشر اعتمد على محمد الفاخري وحمد بن لعبون إلا لتجريده من مصدريته، وترجيح كفة غيره من المؤرخين عليه.

لكن يبقى الشيخ ابن بشر - رحمه الله - أحد رموز التاريخ السعودي، وواحدًا من المخلصين الذين عرفوا لأئمة الدعوة الإصلاحية قدرهم، فكان أمينًا في رصد تاريخهم وكتابته، بل كان متحمسًا عن حق وعلم، لا عن عصبية أو هوى. لقبه المؤرخ محمد جلال كشك بشيخ المؤرخين السعوديين، وعرفانًا بفضله على التاريخ السعودي أهدى إليه كتابه (السعوديون والحل الإسلامي)، حيث قال: "الإهداء إلى المؤرخين الجليلين: عبدالرحمن الجبرتي وعثمان بن بشر، حفظا التاريخ فحفظهما".

ويبقى تاريخ ابن بشر - رحمه الله - (عنوان المجد في تاريخ نجد) حسب شهادات المحققين المنصفين من الباحثين في التاريخ أهم كتاب أرخ للدولة السعودية والجزيرة العربية في العصور الحديثة، يقول المؤرخ الدكتور عبدالله العثيمين: "فإن أهمية تاريخ ابن بشر تبرز في ثلاثة أمور:

أولاً: أنه دوّن حوادث وقعت قبل تلك الدعوة في نجد وما حولها؛ ابتداء من سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م. ومع أن هناك مقتطفات تاريخية لعدد من النجديين عن تلك الفترة فإن ما كتبه ابن بشر أوفى من غيره وأكثر تفصيلاً.

ثانيًا: أن ابن بشر اهتم بالناحيتين الإدارية والاقتصادية إلى جانب تركيزه على الجوانب السياسية والدينية والعسكرية. فذكر قضاة المناطق المختلفة وأمراءها في عهود الحكام السعوديين، وذكر الزكوات الواردة إلى بيت المال؛ خاصة في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، كما ذكر كيفية صرفها. وبالإضافة إلى ذلك تحدث عن سيرة بعض الحكام السعوديين وطريقتهم في معاملتهم لرعاياهم، وفي غزواتهم وتدارس العلم.

ثالثًا: أن ابن بشر قد أضاف إلى ما عثر عليه من تاريخ سلفه ابن غنام تدوين حوادث خمسة وخمسين عامًا، ابتداء من إكمال حوادث سنة ١٢١٢هـ وانتهاء بحوادث سنة ١٢٦٧هـ".

ولا يمكن القول إنه لا أخطاء لدى الشيخ ابن بشر، فكتابه في الأخير جهد بشري، وكلنا نخطئ ونصيب، ومع قلة أخطائه فإنها لم تكن عن عمد، أو لغرض، وقد قال الشيخ نفسه ذلك في مقدمة كتابه - بتواضع العلماء -: "فمن وجد في كتابي هذا زيادة أو نقصًا أو تقدمًا أو تأخرًا فليعلم الواقف عليه أني لم أتعمد الكذب فيه، وإنما هو ممن نقله إليّ والعهدة على ناقليه".

وفي كتاب "تاريخ الفاخري"[١]، جاء في دراسة المحقق لمخطوطة الفاخري بعض التعليقات غير الدقيقة نوجز منها الآتي:

أولاً: أشار الدكتور عبدالله الشبل إلى أن تاريخ الفاخري من مصادر عثمان بن بشر، دون أن يسوق دليلاً مقنعًا على ذلك. ولعل الذي قصده هنا هو المؤرخ الفاخري (الأب) الذي توفي قبل عثمان بن بشر بنحو ١٣ عامًا. مع أن الدلائل الواضحة تخالف هذا الرأي، والحقيقة أن محمد الفاخري هو الذي نقل عن كتاب عثمان بن بشر، وفق الدلائل الآتية:

١ - "تاريخ الفاخري" محدود ومختصر، أما تاريخ عثمان بن بشر فهو شامل ومفصل لكثير من الأحداث، خصوصًا ما يتعلق منها بأحداث الدولة السعودية الأولى، والدولة الثانية التي عاصرها، فتجده يذكر تفصيلات كثيرة للحدث من عدة أسطر، وفي بعضها تبلغ صفحات، في حين أن "تاريخ الفاخري" لا يتعدى جملاً قليلة. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا، منها:

أ - أحداث حصار الدرعية حيث بلغ عدد الصفحات التي دون فيها ابن بشر تلك الأحداث نحو ٢٥ صفحة، أما الفاخري فلم يتعد صفحتين.

ب - معركة الشيط قال عنها الفاخري، ص١٥٥: "وفي آخر رجب غزا سعود وحصلت وقعة الشيط" انتهى.

(١) تحقيق الدكتور عبدالله الشبل، طبعة الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

في حين يتحدث عثمان بن بشر عن معركة الشيط ونتائجها في أربع صفحات.

ج - جاء في مخطوطة آل الفاخري عن حادثة اليمامة سنة ١١٢٦هـ: "صال سعدون المحمد الغرير هو وابن معمر عبدالله بأهل العارض على اليمامة ونهبوا منها منازل".

في حين نجد زيادة عند ابن بشر "وظهر عليهم البجادي بأربع من الخيل".

٢ - شارك الفاخريَّ في تأليف تاريخه ابنه، ومن ثم تداولته أيدي النساخ، في حين لقي كتاب عثمان بن بشر العناية والاهتمام من الأئمة من آل سعود ومن رجال التاريخ. وجدير بالذكر أيضًا أن محقق المخطوطة نسب التاريخ (للأب)، وهذا غير دقيق؛ فهذا التاريخ من تأليف (الأب والابن) معًا فإن (الابن) هو الذي أكمل التاريخ، وبذلك لا يعد من تأليف (الأب) وحده، وكذلك لا يستبعد أن (الابن) أضاف وعدّل الأحداث التي سبق أن دونها (الأب)، فكان الواجب أن يقال تأليف آل الفاخري محمد بن عمر وابنه عبدالله.

٣ - فرغ عثمان بن بشر من تاريخه سنة ١٢٧٠هـ، أما الفاخري (الأب) فلم يُنه تاريخه إلا في سنة وفاته ١٢٧٧هـ فقد دوّن بعض الأحداث قبل وفاته بأشهر، وهو ما يعني أنه ترك تاريخه عملاً غير تام، ثم بعد وفاته واصل ابنه كتابته حتى سنة ١٢٨٨هـ وهذا دليل صريح على أن تاريخ عثمان بن بشر كان متداولاً قبل أن يُنهي آل الفاخري

كتابهم بأكثر من ١٨ عامًا؛ وفي هذا إشارة إلى أن ابن بشر لم ينقل من الفاخري، بل ربما كان ضده هو الصحيح.

٤ - والدليل الآخر هو أن الفاخري (الأب) اطلع على تاريخ عثمان بن بشر، وله عليه تعليق في النسخة المحفوظة بالمتحف البريطاني.

وبذلك تتضح الحقيقة في أن تاريخ عثمان بن بشر، هو أحد مصادر آل الفاخري، فتعليقات الفاخري (الأب) على كتاب عثمان بن بشر في النسخة المحفوظة في بريطانيا تؤكد أن الرجل اطلع على تاريخ ابن بشر، ثم لخّصه، فمعظم تاريخ آل الفاخري إنما هو تلخيص (اختصار) لتاريخ ابن بشر. ما عدا الأحداث التي دوناها بعد توقف ابن بشر.

٥ - يحوي تاريخ الفاخري بعض الأخطاء ولم يعلق المحقق عليها، فقد ذكر الفاخري عند أحداث ضرما معلومات فيها مغالطة لم ترد في مصادر أخرى، حيث أشار إلى رواية مفادها خيانة متعب بن عفيصان.

لكن الأصل، وهو نص ابن بشر، لم يذكر هذه المغالطة، بل إن تاريخ ابن بشر فيه الدليل على خطأ آل الفاخري؛ فبعد سقوط ضرما بعام أي عام ١٢٣٤هـ، ذكر ابن بشر خبر تصفية آل عفيصان من قبل الغزاة ومنهم متعب بن إبراهيم بن عفيصان الذي كان من المدافعين عن ضرما. يقول ابن بشر: "أقبل الآغا الذي في حوطة الجنوب المسمى جوخ دار ومن معه من العساكر. ونزل الدلم، البلد المعروفة في الخرج، وقتل آل عفيصان، وهم؛ فهد بن سليمان بن

عفيصان، وأخوه عبدالله بن سليمان بن عفيصان، ومتعب بن إبراهيم بن سليمان بن عفيصان، واستأصل جميع خزائنهم وأموالهم. وقتل أيضًا علي بن عبدالوهاب قرب الدرعية، وكان له معرفة بالحديث والتفسير وغير ذلك. ثم إن الباشا رحل من القصيم وقصد المدينة ورحل معه حجيلان بن حمد أمير القصيم وقصد المدينة"[٢].

ونص ابن بشر مطابق لنص وثيقة عثمانية في إعدام آل عفيصان ومن ضمنهم متعب بن عفيصان الذي اتهمه آل الفاخري، وترحيل حجيلان إلى المدينة المنورة، وهي شهادة من خصوم الدعوة الإصلاحية على صدق ولاء متعب بن عفيصان. يقول إبراهيم باشا ابن محمد علي في رسالة إلى والده حاكم مصر: "وقد رتبه الجزاء اللازم امتثالاً للأمر العالي ولإرادة حضرة ولي النعم على الذين يميلون إلى الفساد في نجد وعارض وسائر الأقاليم أو يلاحظ أن يكونوا مبعث فتن من أمراء عبدالله بن السعود، كعبدالله بن عفيصان وأخيه متعب وفهد، جزاء يكون عبرة للآخرين... وبعد تدمير الأشخاص المذكورين وترحيل حجيلان إلى المدينة ليقيم بها لم يبق بعد اليوم في تلك الحوالي من يتوهم منه التسلط على جانب الحرمين وقد خليت الأقاليم المذكورة على منطوق الأمر العالي"[٣].

---

(٢) **عنوان المجد** (الدارة، ج١، ص٤٣٧- ٤٣٨).

(٣) عبدالرحيم عبدالرحمن: **وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي ١٢٢٢- ١٢٣٤هـ**، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، المجلد الثاني، ص٧٢١.

وهذه شهادة مؤرخ محايد وليس له علاقة بمتعب بن عفيصان تبرئ ساحته. وهي قراءة صحيحة للنصوص وبروح الباحث المتمكن، فعن حصار ضرما يقول عبدالله فيلبي: "فوجه إبراهيم باشا مدفعيته إلى مكان آخر من التحصينات، حيث كان متعب بن عفيصان ورجاله يتصدون للقصف ببسالة إلا أنهم سمعوا مناديًا ينادي أن الأتراك تمكنوا من التسلل خلف صفوفهم، وأصبحت المدينة مكشوفة وتحت رحمتهم، فتوقف متعب ورجاله عن القتال وقام رجال الباشا بمطاردتهم داخل شوارع المدينة"(٤).

ثانيًا: من الأمور الملحوظة على تحقيق الدكتور الشبل في دراسته لمخطوطة الفاخري عقده موازنات بين التاريخين مرجحًا الفاخري، فمثلا يقول في (ص٢٩): "وهنا تذكر المخطوطة انسحاب الجيوش المصرية من نجد تنفيذًا لمعاهدة لندن ١٨٤٠م/١٢٥٦هـ وكأنه بهذا يمهد لقيام عبدالله بن ثنيان بإبعاد خالد بن سعود عن الحكم"، في حين نجد أن ابن بشر يذكر أن إجلاء هذه القوات كان بقوة عبدالله بن ثنيان.

ولم يذكر الفاخري في المخطوطة معاهدة لندن أساسًا، وإنما ورد في تاريخه: "وفي سنة ١٢٥٦هـ سارت العساكر المصرية من نجد من ثرمدا والقصيم وارتحلوا شيئًا فشيئًا". انتهى.

(٤) فيلبي، عبدالله: **العربية السعودية**، مكتبة العبيكان، الرياض، ص٢٥١.

ولم يذكر ابن بشر أن الانسحاب كان بقوة ابن ثنيان، بل بناء على أوامر صدرت من مصر، حتى إن نص ابن بشر يعد أقرب من نص الفاخري في الإشارة إلى أن الانسحاب كان نتيجة لمعاهدة لندن، يقول ابن بشر: "ثم دخلت السنة السادسة والخمسون بعد المايتين والألف والباشا في بلد ثرمدا وورد عليه بالشخوص إلى مصر فانتدب لجمع الرحايل من العربان".

ثالثًا: في النسخة المصورة لـ: "عنوان المجد في تاريخ نجد"، تقديم عبدالله المنيف، طباعة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ورد في التقديم المشار إليه إيحاء للقارئ بأن هذا التاريخ غير مهم، وإيضاح هذا على النحو الآتي:

١ - يقول الدكتور عبدالله المنيف في كلمته في مقدمة صورة المخطوط صفحة (م): "ولم يكن تاريخًا متفردًا كما يتبادر للذهن أول وهلة، بل إن التاريخ إذا جرد من نقولاته لا يكاد يكون شيئًا إلا إذا استثنينا الأحداث التي عاصرها وشاهدها". والحقيقة أن التواريخ التي يجمعها المؤلفون في الغالب هي نقل عمن سبقهم من المؤرخين.

٢ - يشير الدكتور عبدالله المنيف إلى أن المؤرخ عثمان بن بشر قد أخذ معلوماته من (ابن لعبون) مستشهدًا بقول البسام نقلاً عن ابن عيسى الذي يقول: "إن تاريخ عثمان بن بشر منقول من تاريخ ابن لعبون، بل هو بعينه أعطاه إياه زامل بن حمد بن لعبون خفية من والده". انتهى.

والحقيقة أن الذي يعرف تواريخ ابن عيسى يجد أنه من أكثر المؤرخين نقلا عن التواريخ التي سبقته دون الإشارة إليها، فكتابه: "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" أغلبه نقل عن تاريخ آل الفاخري دون الإشارة إليهم.

ومن الأمثلة التي ساقها الدكتور المنيف، عن أحداث سنة ١٠٨٤هـ قوله: "كما استفدت من خطأ تاريخي وقع فيه ابن بشر إما منه وإما ممن نسخ تاريخه، وهذا الخطأ تمت معالجته بالاطلاع على المصدر الذي ينقل منه ابن بشر وهو ابن لعبون يقول ابن بشر في أحداث ١٠٨٤هـ: وفيها قتل أمير الدرعية ناصر بن محمد، وأحمد بن وطبان، وبعد الاطلاع على مصدر عثمان -الذي هو ابن لعبون - وجد الأمر هكذا: وفيها قتل أمير العيينة [هكذا] ناصر بن محمد بن وطبان".

والحقيقة أن هذا الخبر قد نقله عثمان بن بشر من ابن ربيعة، كما صرح بذلك في تاريخه، يقول ابن ربيعة: "وفي آخر هذه السنة في ذي الحجة سافرت للقراءة على شيخنا الفاضل عبدالله بن منيف بن ذهلان وفيها ذبح أحمد بن وطبان وشيخ العيينة ناصر بن محمد". وهذا نص عثمان بن بشر الذي اقتبسه بأخطائه من نص ابن ربيعة السابق مع تغييره لاسم البلدة من العيينة إلى الدرعية - في حين أن الصحيح: شيخا العيينة والدرعية - يقول ابن بشر: "وفيها قتل أمير الدرعية ناصر بن محمد وأحمد بن وطبان، وقال الشيخ الفقيه محمد بن

ربيعة العوسجي: وفيها في ذي الحجة سافرت للقراءة على شيخنا الشيخ عبدالله بن ذهلان"، فانظر إلى قول عثمان بن بشر في آخر الخبر: "وقال الفقيه محمد بن ربيعة العوسجي: وفيها في ذي الحجة سافرت للقراءة على شيخنا الشيخ عبدالله بن ذهلان". فهذا تصريح بأن الخبر نقله بأكمله من تاريخ ابن ربيعة: "مقتل أمير الدرعية وسفر ابن ربيعة للقراءة على شيخه ابن ذهلان".

٣- يقول الدكتور عبدالله المنيف في صفحة (ض): "إن عثمان بن بشر تابع الفاخري في بدء تاريخه بسنة ٨٥٠هـ". وهذا قول غير دقيق، فالمعروف أن عثمان بن بشر يؤرخ لدولة آل سعود والدعوة الإصلاحية، حتى إنه جعل سوابقه قبل اتفاق الدرعية المشهور بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله -، وبدأ هذه السوابق بسنة ٨٥٠هـ؛ لأنها تؤرخ لعودة أجداد آل سعود من شرق الجزيرة إلى العارض.

أ. حمود بن متعب بن عفيصان
مركز القاعية - إمارة الرياض